الدنيا مظاهر

لم يعرف أهلُ الحيِّ رجلًا في مثلِ وسامته ولا في أناقته وحسنِ هندامه... كان الأستاذ (عادل) يسير في مساره اليوميِّ المعتاد لا يشذُّ عنه قدر أنملة... من بيته إلى العمل، ومن عمله إلى البيت، لا مكان له سواهما... يستقلُّ وسيلةَ المواصلات نفسها، ويسير في الطريق نفسه...

لم يكن جيرانه يعلمون شيئًا عن حقيقة عمله الروتيني البسيط كموظف بدار المحفوظات، ولا عن الجنيهات المعدودة التي كان يتقاضاها أول كلِّ شهرٍ؛ فقد كان كتومًا إلى أبعد درجةٍ، ليس له أصدقاء، ولا يتحدَّثُ كثيرًا مع جيرانه... كل معرفتهم به تكشف عنها هيئته التي يبدو بها في أعينهم وكيل وزارة، أو موظفًا كبيرًا في بنك، أو شركة استثمارية كبرى...

وكان زملاؤه في العمل يرونه في صورة المتفضِّل على العمل الحكومي؛ فهو ليس في حاجة إلى راتبه البسيط، وإنَّما يشغل به وقت فراغه، فهو في نظرهم الشاب الثري "الوارث" الذي وُلد وفي فمه "ملعقة ذهب"... و"الناس لها المظاهر"... ورغم أنَّه أصبح على مشارف الأربعين إلا أنَّه لم يزل يحتفظ برونق الشباب... كان الأستاذ (عادل) - أو كما يسميه جيرانه (عادل بيه)- مطمعًا لفتيات الحيِّ وجاراته الطيبات، كلُّ واحدةٍ منهن

تتمنَّاه زوجًا لابنتها، وأمنيةً لزميلاته في العمل اللائي مللن من انتظار فارس أحلامهن على حصانه الأبيض...

كان (عادل) في حياته أشبه بثمرة الفاكهة الناضجة لها قشرةٌ خارجية ولبٌّ داخلي، وقد تكون القشرة جميلة براقة ومحتواها هشٌّ مهترئ... كان خارج بيته – وهي الصورة التي يعرفها الناس من حوله – في غاية الأناقة يبدو في ثيابه دومًا متألقًا... بدلته في لمعة قماشها ونظافة سترتها آخذةً بالأبصار، دائمًا مزررة، وتزين رقبته رابطة عنق تحكي مع لون قميصه من الائتلاف قصة حبٍّ، وهيام، وتآلف، وانسجام، وغالبًا ما تزدان بدبوس فضيٍّ لامع أو ذهبيٍّ برَّاق، وكذلك أزرار أكمامه، هذا كلُّه علاوة على ساعته الذهبية، وحذائه الأسود اللامع... وهذا المظهر الجذَّاب لم يكن ليلفت الأنظار لولا صاحبه الذي يميزه ذوقه الرفيع، وثقته بنفسه واعتداده بها، ولباقته، مع غموضه، وقلة فضوله، وندرة كلامه، إلى جانب وسامته الظاهرة التي تستلفت انتباه جميع من حوله ليس في عمله ولا بين جيرانه فحسب، ولكن بمجرد ما يسير في الطريق تلاحقه نظرات يترفَّع عن صاحباتها المحدِّقات فيه...

لم يكن أحدٌ يعرف عنه شيئًا سوى أن أبويه كانا طيبين – رحمة الله عليهما – ولم يكن له إخوةٌ أو أقارب...

لم يترك له والداه من متاع الدنيا سوى شقةٍ في عمارة محترمة بحيٍّ "مصر الجديدة" ذلك الحيُّ الذي يجمع بين الرقي والهدوء، استأجرها أبوه منذ زمنٍ بعيد... قبل أن تتفجَّر مشكلة الإسكان، وتتقدم البنايات الشاهقة فتزحف على البنايات القديمة ذات اللمسة الهندسية البديعة فتكتسحها، وقبل غزو التمليك، ونظام المفروش، والإيجارات الجديدة لأحياء القاهرة العريقة... وقد دخل (عادل) بذلك عالم المتملكين وسكان هـذا الزمان "المتريشين" وإن لم يكن في الحقيقة منهم؛ فلا يزال إيجار شقته على ما كان عليه منذ أيام والده عشـرون جنيهًا، وهذا بالطبع كان سرُّ بقائه في هذا السكن... المهم أن يراه زملاؤه في عمارةٍ محترمةٍ بحيٍّ راقٍ، ويراه جيرانُه من سكان العمارة وكأنَّه واحدٌ منهم!

وبين جدران شقته كان يحيا حياةً متقشفةً إلى أبعد الحدود، كان يمكن أن يعيش بمرتبه الهزيل عيشةً معقولة وخاصةً مع إيجار مسكنه المتواضع، لكنَّه كان مغرقًا في المظهرية وحبِّ التأنق مما يجعله يتورَّط أكثر من مرةٍ، ففي يومٍ وأثناء ارتياده أحد "المولات" الراقية وفي جولةٍ له داخل أروقة أحد المحلات التجارية بها رأى قميصًا أعجبه فسأل عن ثمنه - وكان يساوي نصف راتبه – وهربًا من الإحراج أمام أحد معارفه اشتراه من فوره بجميع ما كان معه!

وكان (سيدهم) الساعي بالمصلحة دائمًا ما يقصده في شراء محتويات حقيبته المكتظة بأصناف العطور، والملابس، والمناديل، والجوارب... فقد كان (عادل) بك زبونه الدائم، بل كان أحسن زبائنه؛ لأنَّه لم يكن يشكك أبدًا، بل يعطيه كلَّ ما يريد ليحافظ على صورته أمام زملائه!

وكان لابد لهذا الإسراف من نتائج سلبية بدت صورتها واضحة في حالة الأثاث القديم الرثِّ الذي تحتويه جدرانُ شقته، والذي اشتراه والده لزواجه منذ نصف قرن حين وضع قدميه في هذه الشقة لأول مرة، كما أنَّه لم يغير حتى لون طلائها، ولا غضاضة في ذلك لأنَّه لم يكن يستضيف أحدًا...

ولم يكن اهتمامه بطعامه على قدر اهتمامه بمظهره، فثلاجته تكاد تكون خالية إلَّا من بعض ما يسد جوعه، فلم يكن يومًا أكولًا، مما ساعده على الاحتفاظ بقوامه الممشوق ورشاقته التي لا تخطؤها أعين بنات جيرانه وزميلاته في العمل وهن يتفرَّسنه من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه...

لم يكن (عادل) يعيرهن اهتمامًا فقد كان يجد متعته في الظهور أمام الجميع كنجوم السينما الذين تطاردهم أعين المعجبات، ويخشى أن يتزوج فيفقدهن!

كم خاطب نفسه قائلًا:

- الزواج مكلف يحتاج أمولًا طائلة، فأين لي بنفقاته؟! ثم إني أملك حريتي فأين عقلي حتى آتي بمن يقيدِّها ويفرض عليَّ حياةً بائسةً أدور في رحاها كالثور في الساقية، ثم أسقط يومًا من الإعياء بعد أن يعجِّلَ التعب والجهد بشيخوختي؟! الحمد لله أنا في نعمة...

وكان (عادل) في مظهره الأنيق، وحذائه اللامع، ورابطة عنقه المعقودة حتى في عزِّ الحرِّ، ورائحة "البارفان" الزاعق الذي يفوح منه في نظر الناس متواضعًا، بل شديدَ التواضع!! يمشي على قدميه بين الناس ويستقل المواصلات العامة مثلهم! والناس لها المظاهر ولا يدري بحقيقة الناس إلَّا خالقهم...

كان معتادًا أن يستقلَّ "الترام" في رحلتي الذهاب إلى العمل والإياب منه...

- لا أحبُّ قيادة السيارات، لذا لم أشترِ سيارة... أنا أفضِّل "الترام"... "الترام" كان ولا يزال وسيلة مواصلات البشوات منذ أُنشئ حي "مصر الجديدة"...

تلك كانت إجابته عن سؤال اعتاد سماعه من زملائه في العمل.

كل صباح كما كان دأبه دائمًا... يغلق باب شقته خلفه يتبعها بسكتين متتاليتين لكالون الشقة، ويضع مفتاحه في جيبه... تطرق سمعَ جيراه المتلصصين طرقاتٌ خفيفة منتظمة هي وقع خطواته على درجات السلم، ثم يخرج من بوابة البناية ليسير بطول الشارع حتى يصل إلى محطة "الترام"... ينقِّلُ عينيه بين الطريق أمامه وبين بوز حذائه اللامع ليتدخل في الوقت المناسب ويعالج الأمر بمنديله الورقي، فكلما سقطت عليه ذرة تراب أسرع إلى حافة الرصيف يسند قدمه عليه ويزيل ما علق به، ثم يستكمل مسيره، وكان ذلك يدفعه إلى الحرص كلَّ الحرصِ على ثبات خطواته وتجنب التراب المكوم في بعض أجزاء الطريق.

كان (عادل) يذهب إلى عمله مبكرًا قبل ازدحام المواصلات وهكذا يضمن أن يحافظ على هندامه منسَّقًا ومظهره مرتَّبًا.

وكالمعتاد... وبعد يومٍ من العمل... خرج في رحلة العودة وسار خطوات وئيدة حتى وصل إلى محطة "الترام" يزهو بحذائه اللامع، وثيابه المهندمة... أقبل "الترام" يتهادى، ويئن تحت وطئة أعدادٍ غفيرة من الركاب كانوا يتدلُّون من أبوابه ونوافذه، لكن لا مفرَّ من استقلال تلك المواصلة في وقت الذروة مع هذا الزحام، المهم أن يحفظ قدميه بعيدًا عن وطء أقدام البشر الذين تكتظ بهم عربة "الترام"...

وبعد جهد جهيد تمكن أن يظفر لنفسه بمكانٍ في إحدى عربات "الترام"، ثم تنحى جانبًا وأسند ظهره إلى عمودٍ في مواجهة الباب...

وجوهٌ معتادةٌ مألوفةٌ، كلُّ شيءٍ يسير وفق إيقاعٍ رتيبٍ مملٍّ اعتاد أن يراه كلَّ يومٍ، اللهم إلَّا امرأة رثَّة الثياب منحنية الظهر توزِّع على الركاب دعاءها بطول العمر وسعة الرزق... بكلمات استعطاف وتوسل تستدر عطفهم ورحماتهم... تتسوَّل، وحتى هذا الأمر لم يكن عليه بالغريب فقد اعتاد على رؤية أمثال تلك المرأة التي تزدحم بهن عربات "الترام" وكافَّة المواصلات... وعلى الرغم من أن العربة كانت مكتظة بالركاب وكانت المرأة طاعنة في السن، إلا أنَّها كانت بحقٍّ ماهرةً في الاندساس بين الركاب عبر الممر الضيق المحصور بين مقاعدهم المتراصة، ربما كان لمظهرها المزري وللاتساخ الشديد الذي اتسمت به هيئتها دوره في نفور الناس منها مما سهَّل عليها أداء مهمتها تلك بمهارةٍ تُحسَد عليها...

لم تخطئ العينُ حالة التأفف التي ارتسمت على وجه أستاذنا الأنيق المتحذلق، وما كان منه إلَّا أن أشاح بوجهه عنها، وتوجه ببصره إلى الجانب المقابل كمن يخشى أن يعدو عليه بؤسُها وسوءُ حالها، أو تعلق صورتُها المزرية بخياله فتعكِّر مزاجه وتكدِّر صفوه بقية يومه!

لم تمضِ لحظات على هذا المشهد حتى تعالى صوتها بالصراخ:

- الحقوني... الحقوني... اتسرقت!

وعاجل اللصُّ الجميع بالقفز من "الترام" أثناء سيره... انتهز الفرصة حيث دهشة الناس وذهولهم، "يتعازمون بعضهم على بعض" في اللحاق به... لم تكن حادثة السرقة وقفزة اللصِّ البهلوانية هي التي عقدت الدهشة على الوجوه وشلَّت الأقدام و"سمَّرتها" في مكانها، وإنَّما صراخ العجوز المتواصل:

- اتسرقت... (١٢٠٠) جنيه... يا عالم يا هووو! شقايا طول اليوم!

نزلت كلمات العجوز على أسماع الركاب كالصاعقة... ونالت من بطلِ قصتنا ما نالته من الحيرة والعجب!

عجوزٌ تتسول مثل راتبه في بعض يومٍ! وهو من يحرق نفسه في العمل ليبدو في نظر الناس "بيه محترم" ملء السمع والبصر! لا يحمل في جيبه إلا ستون جنيهًا هي كل ما تبقى معه من مرتب الشهر الذي ما انزاح إلا نصفه! سبحان الله! له في خلقه شئون!!

وما قطع حيرته إلا صوت "الكمسري" وهو ينادي على التذاكر بطريقته المألوفة...

بادر (عادل) إلى جيبه الخلفي بتلقائية ليخرج حافظة نقوده... أزاح طرف سترته الخلفي ليخرجها من جيبه، لكنه أحسَّ بخفَّةٍ في ذلك الجيب... كانت الحافظة غير موجودة... لقد سُرِقتْ بما فيها!

كادت تخرج صرخةٌ من فيـه مثلما فعلت العجوز، لكن أين هو من العجوز؟! وأين ما كان بحوزته من المبلغ الذي سُرِقَ منها؟!

كتم صرخته في صدره حتى لا يتسبب لنفسه في حرج... فهو السيد المحترم وليس في حافظته سوى هذا المبلغ التافه! ازدرد غيظه وسكت...

بحث في جيب سترته حتى اهتدى إلى عملةٍ فضية، حمد الله أن وجدها وإلَّا من يدري ما ستكون عليه صورته أمام الناس؟! أعطاها "للكمسري" وأخذ تذكرةً دسَّها في جيبه...

وصل "الترام" إلى المحطة التي ينزل بها فنزل درجاته في حزم...

استدار ليرمق الترام شزرًا وهو ينطلق في مساره مسرعًا... همهمةٌ وضجرٌ كظمهما بين فكيه المنطبقين على بعضهما تصطك أسنانه غيظًا...

تمالك نفسه واستعاد هدوءه سريعًا، وقال في نفسه:

"لا يهم... ستون جنيهًا!"

الأوراق... البطاقة الشخصية! استخرِجُ غيرها... مش مشكلة!

عدَّل (عادل) بك من سترته، وشدَّ رابطة عنقه، وسار بخطواتٍ واثقةٍ نحو مسكنه متعاليًا على نظرات المعجبات المتطلعة إليه المبهورة بأناقته وحسن هندامه...

*****